الباب الحادي عشر

فلسطين خلال العصر اليوناني–الروماني

في عام ٣٣٢ ق. م حاصر الاسكندر مدينة غزة مدة شهرين، وقد دافع عنها أهلها ببسالة إلى جانب حامية الفرس، حيث أصيب الاسكندر بجراح ومن ثم سقطت المدينة بيد الاسكندر ودخلت فلسطين تحت حكم الإمبراطورية اليونانية.

وبعد وفاة الاسكندر في حزيران من عام ٣٢٣ ق. م ببابل على إثر إصابته بالحمى تقاسم الإمبراطورية قادته الأربعة فيما بينهم.

ففي مصر بطليموس، وسوريا وأرض الرافدين سلوقس، وآسيا الصغرى انتيفوس، واليونان "مقدونيا" انيتباتر، وكانت فلسطين من نصيب أسرة لاغوس المعروفين في التاريخ بالبطالة، وذلك منذ عام ٣٢٣ ق. م وحتى عام ١٩٨ق. م.

ولكن أنطيوخس حاول في عام ٢١٧ ق. م ضم فلسطين، ولكنه فشل حيث هزم بالقرب من رفح "رافيا القديمة". إلا أنه عاد واستطاع ضمها إلى سوريا عام ١٩٨ ق. م. وقد اعتبر أنطيوخس نفسه آلهاً، أو الإله الظاهر (تيوس ابيفانس) وقرن نفسه بزفس أوليمبيوس، وأعطى أهل سوريا أنفسهم امتياز عبادة الملك، واستولى على كنوز معابد الكنعانيين بفلسطين.

واعتبر الإله زفس معادلاً للإله بعل ولم يعترض سكان فلسطين. ولكن اليهود الذين أعادهم الفرس لبناء المعبد اليهودي تمردوا، عندما وضع ايطوخس في معبدهم مذبحاً للإله اليوناني وكان الإله زفس يعبد بصفات كنعانية ويمثل بلبلس نصف كنعاني.

إلا أن اليهود الموجودين في القدس لم يقبلوا بذلك فقاموا بمعارضة الاعتداء على الهيكل عام ١٦٨ق. م، وتزعم المعارضين ابن كاهن يهودي اسمه يهوذا، واتخذ اسمه "المكابي" وتعني المطرقة، ولكن السلوقي ديمتريوس الثاني نيكابور قام بإعطائهم الحرية الدينية وعين منهم كاهناً اسمه سمعان، ومن ثم عينه حاكماً على فلسطين عام ١٤١ ق. م وهذه سنة المستعمرين حيث يعطى الحكم والنفوذ للأقليات ليكونوا جواسيس للسلطة على أهل البلاد.

وهكذا كان دور اليهود بفلسطين خلال فترة الإغريق، ولكن نزعتهم الدينية تحولت إلى نزعة قومية فقاموا بالضغط والإجبار على الكنعانيين العرب كي يدينوا باليهودية وكذلك الختان. ومن القبائل التي مورس الضغط عليها الأدوميين عام ٢٦ ق. م(١).

كما تطاولوا في عهد خلف سمعان، أرسطو بولس (١٠٥-١٠٣م) حيث ضغطوا على الأريتوريين العرب، سكان الجليل وهم كنعانيون، وخيروهم أيضاً بالختان والدخول في اليهودية. وقد دخل كثير منهم في الديانة اليهودية ولذا نجد أن كثيراً ممن عمل السيد المسيح (عليه السلام) بينهم واتخذ منهم أكثر تلاميذه هم من أصل عربي. وكان اليهود ينظرون إليهم وكأنهم أدنى من اليهود وغير أهل لظهور نبي فيهم(٢).

سقطت فلسطين في يد روما عام ٦٣ ق. م وأصبحت تحكم من قبل نائب قنصل روماني. ومن ثم أعطت روما خلال القرن الأول قبل الميلاد هيرودس حكم أجزاء من فلسطين (٣٧-٤ق. م) وهو أدومي كنعاني عربي. ولكن اليهود الموجودين في القدس عادوا وتمردوا ضد بيت المقدس ٧٠ م بأمر من تيتوس الروماني وأنهى وجودهم ولم يبق إلا النذر البسيط، عاشوا في فلسطين بالقدس بين أهلها الكنعانيين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاحتلال الروماني. واستمر الاحتلال حتى عام ٣٢٣م. حيث انتصرت المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي على يد قسطنطين.

وخلال الفترة من عام ٣٣٢ ق. م إلى عام ٣٢٣ م خضعت فلسطين إلى حكم الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية وتركت الهيلينية(٣) بصماتها واضحة على مظاهر الحياة أيام اليونانيين وذلك نتيجة لأن الاسكندر قام بإنشاء (٧٠) مدينة ضخمة على الطراز الإغريقي، استخدمها كمراكز ثقافية لنشر الحضارة الهيلينية في البلاد الشرقية وكذلك لتأمين طرق المواصلات.

سكنها المسرحون من الجيش، وقد جمعت المدن الكثير من العسكريين والتجار والعلماء والفنانين والعبيد ومن المدن الثقافية التي أنشئت في العهد اليوناني، بيلاوديون "تل الأشعري"، وهيبوس "قلعة الحصن" ويقعان شرقي طبريا "فيلوتير" في الطرف الجنوبي من بحيرة طبريا، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى فيلوتير شقيقة بطليموس الثاني فيلادلفوس مدينة جيرازا، وقد حول الإغريق الكثير من أسماء المدن العربية، فأعطوها أسماء إغريقية ورومانية، منها عكا، حيث سميت بتولما في عهد بطليموس الثاني وبيسان سميت سكيثوبوليس، وبيت جبرين أطلق عليها اليوثيروبولس.

بعد العصر الإغريقي الروماني أعاد العرب إلى مدنهم أسماءها الكنعانية العربية القديمة باستثناء نابلس التي كانت تسمى شكيم وسماها الإغريق نابلوليس حرفت وأصبحت حالياً نابلس. وهذه المدن أو المراكز الثقافية اتبع في تخطيطها النظام المعماري اليوناني، وأصبحت معظم المدن وخاصة يافا وعسقلان وغزة ورافا ذات صبغة هيلنستية خلال الحكم اليوناني الروماني، وخلال فترة الرومان أقيم اتحاد مدن عرف باسم اتحاد الديكابوليس(٤).

ومن المدن التي اشتهرت في هذه الفترة مدينة الأنباط البتراء عاصمة مملكتهم وسكانها من القبائل العربية. وهم الذين يعرفون اليوم باسم الحويطات ويعيش جزء منهم في الأردن، حول البتراء، وجزء آخر في النقب وسيناء وجزء في السعودية ثم تغير اسمهم عبر التاريخ فيوماً كان اسمهم المدينيين ثم الأنباط ثم الحويطات إلا أنهم في الأصل عرب كنعانيون.

وخلال العصر اليوناني بفلسطين تغير نظام الحياة، حيث خضعت المدن إلى حكم الإمبراطور مباشرة، وأصبحت المدن تشتمل على رقعة واسعة من الأراضي تحيط بها الأسوار ولها بوابات ضخمة ورهيبة وذات جلال، وبداخل الأسوار يقع القصر الملكي أو قصر الحاكم، وكذلك الساحة العامة والمدرج الضخم والمسرح وبرك السباحة، والمعابد الضخمة المتعددة بينما خلت الحياة في الريف الفلسطيني من الصبغة اليونانية الرومانية، ولم تختلف الحياة عن صورة الأجداد الكنعانيين، حيث لم يتدخل الرومان واليونان في حياة الفلاحين، ولذلك بقي الفلاحون يعيشون حياتهم العادية. فتأثرهم بالحضارة الإغريقية والرومانية غير واضح، ولذلك استمروا يمارسون حياتهم وفق عاداتهم وتقاليدهم القديمة، فخلت فنونهم من التأثير: العمارة الدنيوية والدينية والجنائزية، فن التطريز، الخزف،

الزجاج والمنحوتات الخشبية(٥).

أهم المراجع:

(١) سفر المكابيين الأول ٤: ٢٩.

(٢) أنجيل مرقس ١٤: ٧٠، أعمال الرسل ٢: ٧، لوقا ٢٢، ٥٩، يوحنا ١: ٤٦.

(٣) الهيلينية: هي الحضارة اليونانية في بلاد اليونان وتسمى داخل اليونان باسم الهيلينية أما حضارة اليونان التي ظهرت خارج اليونان، وهي مزيج من اليونانية والشرقية وتسمى الهيلنستية.

(٤) هو اتحاد يضم عشرة مدن إغريقية كان منها بيسان، جداراً، جراسا فيلادلفيا دمشق.

(٥) عبد الرحمن المزين–الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ ص ٢٥٣ إلى ٢٥٦.